**تقديم ديوان الشّاعر: سوف عبيد**

**الأستاذة : سونيا عبد اللطيف**

 صدر هذا الديوان للشّاعر سوف عبيد في شهر ماي 2017 عن دار الاتّحاد للنّشر والتّوزيع بتونس ويضمّ أعماله التي تمّ طباعتها و نشرها في مجموعات شعريّة خلال السّنوات المنقضية وأعماله الجديدة التي لم يتمّ طبعها ونشرها بعد...

التّقديم المادّي للدّيوان:

الغلاف الخارجي لونه أخضر زيتوني ويقال أخضر جيشي vert militaire .

 في الواجهة للكتاب صورة نصفيّة للشّاعر مرسومة بخطّ اليد وباللّون الأسود مع ترك الفضاء أبيض للرسّام حمّادي صمّود ... في قفاه كلمة النّاشر صلاح الدّين الحمادي رئيس اتّحاد الكتّاب التّونسيّين ولا تتجاوز العشرة أسطر ...

اللّون الأخضر عادة هو لون الارتياح والهدوء - التأمّل واللّين ...

اللّون الأبيض يرمز للسّلم و النّقاء- النّور والضّياء...

اللّون الأسود هو لون اللّيل والظّلام - القسوة و الوقار ...

عدد صفحات الدّيوان 380، وقد تضمّن الإهداء وعناوين المجموعات الشّعريّة و سيرة ذاتيّة مختصرة جدّا لبعض مشاركات الشّاعر في النّدوات والتّظاهرات الثّقافية الوطنيّة والدّوليّة ...

نصّ الإهداء: "إلى الّذين علّموني - إلى الّذين تعلّمت منهم "

للقارئ أن يسأل ما الفرق بين الجملتين ؟ وأين الاختلاف ؟ وكلاهما مركّبين بالجرّ والمجرور فيه مركب موصولي وكل من الصّلة فيهما مركب اسنادي فعلي غير أنّ الفعل في الأولى مسند إلى هم والفعل في الثانية مسند إلى المتكلم المفرد ووظيفة هذا المركب مفعول به وقد وقع حذف الفعل والفاعل للاختصار فأصل الجملة " أهدي عملي إلى .... "

كلّنا نعلم أن مصدر المعرفة والتعلّم هو الأسرة ثمّ المدرسة يليها المجتمع والحياة برمّتها ... هذه المصادر التّعليميّة والتّثقيفيّة تقدّم المعلومات والتّعليمات والمتلقّي لها يأخذ أو يذر يستفيد أو لا يستفيد كلّ يستجيب لها بحسب اجتهاداته وقدراته و ميولاته وذكائه ...

بينما "تعلّم منهم" تفيد أنّ المقصود قد تحقّق والغاية قد تمّت والتعلّم قد حصل وأنّ المتعلّم تمكّن من الدّرس وفهمه فهما صحيحا فاستفاد و به أفاد ...

وإن دلّ هذا الشّيء على شيء فإنّما يدلّ على تواضع الشّاعر واعترافه بالجميل لكلّ من له فضل عليه ، لذلك هو يحيّي كلّ هؤلاء الّذين علّموه وتركوا في حياته أثرا وساهموا في بناء شخصيّته و معارفه و في تطوّر أعماله الأدبيّة والشّعريّة ...

 التعريف بالشاعر

 هو شاعر تونسي من مواليد 1952 ببئر الكرمة من مدينة غمراسن الواقعة بالجنوب التّونسي وقد تخرّج بكليّة الآداب بتونس سنة 1976 ودرّس العربيّة وآدابها بالمعاهد الثّانويّة إلى سنة 2012

 بدأ الشّاعر سوف عبيد مسيرته الأدبيّة الفعليّة في سنّ ما قبل الثّمانيّة عشر بنشر قصائده في الجرائد والمجلاّت التونسيّة والمشاركات في الأمسيّات واللّقاءات الأدبيّة مع أساتذة من ذلك العصر أمثال العروسي المطوي ونور الدّين صمّود والميداني بن صالح ...

أوّل ديوان صدر له سنة 1980 الأرض عطشى وكان عمره 28 سنة أي بعد مسيرة عشر سنوات في كتابة الشّعر وهذا دليل كاف على تريّثه وصبره و عدم استعجاله في النّشر أو البحث عن الاسم و الشّهرة... ثمّ تتالت أعماله الشعريّة إثر ذلك أعماله و إلى جانب الشّعرله إصدارت أخرى وعدة مقالات نشرت في عدّة صحف ومواقع منها :

" ألوان على كلمات" مع لوحات عثمان ببّة وترجمته إلى الفرنسيّة سنة 2008

"حركات الشّعر الجديد" بتونس سنة 2008

" صفحات من كتاب الوجود" يشمل القصائد النثريّة لأبي القاسم الشّابي سنة 2009

 اختار الشّاعر سوف عبيد أن يكون مختلفا في كتاباته ، مغايرا للآخرين فجعل له أسلوبا خاصّا به وبذلك يكون قد ساهم في حركة التّجديد في كتابة القصيد والشّعر... فهو يرى أن النصّ الشعريّ لا حدّ له ولا يقف عند تعريف معيّن فهو يتطوّر ويتجدّد تبعا لتحرّكات السّاحة الأدبيّة والثقافيّة مواكبا للعصر والحضارة ومستلزمات الحياة ، فالشّعر بالنسبة إليه هو ذلك النصّ البنّاء المتجدّد والشّاعر هو ذلك المبدع الخلاّق، ويكتفي بقولة:

"النصّ هو الدّائم"

و"النّجاح في محاولة التّجديد وليس في التّقليد "

كيف لا ؟ والشّاعر متطلّع على شتّى أنواع الآداب والفنون، غارف آكل منها قديمها وحديثها وهو المتابع لكل حركات التّجديد في الشّعر وقد أنجز عملا في هذا المضمار يحمل عنوان: "حركات الشّعر الجديد بتونس 2008" و يدعو الشّاعر فيه إلى ضرورة التّنويع والتّجديد والتّجويد وذلك بعدم الوقوف على الأطلال والاكتفاء بالتّقليد وبعدم البكاء فوق الرّوابي، أمام القوافي ولا بالتّوقف عند البحور في عجز وحيرة من كيفيّة العبور ....

 الشّاعر سوف عبيد يعتبر أنّ الشّاعر النّاجح هو ذلك الذي يحلّق بعيدا عاليا بنصّه باستنباطه أفكارا جديدة فيها من الإبداع ما يشهد لها بالبروز والبقاء وتحمل معان ورؤى جديدة متطوّرة تقرأ فيها بعد النّظر، تتضمّن طرافة ، تشدّ القارئ والسّامع، تلفت البصر، ترسّخ في الذّهن ... و النصّ الشّعريّ لديه لا يتحمّل التّمطيط إذ ينتهي بمجرّد انتهاء فكرته واكتمال صورته ... لذلك هو يصرّ على الإيجاز و الاختصار و حسن اختيار المفردات والعبارات واعتماد الدقّة في الوصف والتّكثيف من الصّور ...

 كيف لا ؟ وهو الشّاعر المتواضع الذي يشجّع كل مبتدئ، كلّ عاشق للحرف والكلمة، كلّ موهوب في الشّعر والأدب وفي كلّ الفنون على أن يواصل مسيرته في عزم وثبات، بحث وتأمّل ،تمعّن وتمهّل ، وذلك بالمطالعة والقراءات ومواكبة تحركّات الأدب والشّعر في جميع الأقطار عربيّة وغربيّة، محليّة وأجنبيّة من أجل ثقافة أوسع وأشمل تفيده وتفيد كلّ النّاس ولا تختصر على نخبة معيّنة ...

 سوف عبيد، شاعر متحرّر مجدّد فقد كتب في كلّ الأنماط الأدبيّة، كتب الشّعر العمودي كما كتب الشّعر المقفّى والموزون والشّعر الحرّ والمنثور واختار لنصوصه لغة سلسة ظاهرها سهل و بسيط ، باطنها بحث وتحقيق ...

كما أنّ اللّغة التي يكتب بها قصائده لغة عربيّة سهلة، متناولة، واضحة ومحترمة، فقد كان حريصا كلّ الحرص على أن تكون عباراته منتقاة، لائقة و مهذّبة، إذ تجنّب المفردات المثيرة أو تلك التي فيها إباحة و ابتذال. ففي تصفّحي لجلّ أعماله وجدت عبارة "سكارى " قد تكرّرت مرّتين فقط وذلك في ص 72 (يمرّ السّاهرون - يمرّ السّكارى - يمرّ عمّال الفجر والقطط ) وص 149 (وقتها أخطأت أقدام السّكارى )

 وأظنّها كلمة يتيمة لمفردة "الخمر" ص 265 (كالخمر- قالوا - وأجودها من خبايا العتيق)

 أمّا مفردة "النّهدان" تعدّ بالأصابع ص 15 (...ضمّي رأسي بين نهديك ..) و ص 96 (حتّى وضع الرّأس بين النّهدين ) ثمّ ص 269 (وجدت رباط عنقه - بين نهديها )

 قراءة الدّيوان :

 تضمّن الدّيوان إحدى عشر مجموعة شعريّة ذيّلت بسيرة ذاتيّة تحت عنوان "بصمات وخطوات" تتألف من 25 نصّا أو مقالة وختمه بحوار أدبيّ أجراه له الأديب عبد المجيد يوسف موضوعه الشّعر والقصيد النثري المتداول اليوم ورأيه في ذلك ...

 عناوين المجموعات الشعرية كالآتي:

1. الأرض عطشى 21 نصّ .
2. نوّارة الملح 13 نصّ.
3. امرأة الفسيفساء 19 نصّ.
4. صديد الرّوح 94 نصّ في " شكل شذارات أو نسمّيها ومضات ".
5. جناح خارج السّرب 30 نصّ.
6. نبع واحد لضفاف شتّى 24 نصّ.
7. عمر واحد لا يكفي 23 نصّ.
8. "الجازية " ملحمة من 12 صفحة .
9. حارق البحر 27 نصّ .

 10- عاليا ... بعيدا 32 نصّ .

 11- واحدان 51 نص.

ثمّ :

12- القطار الذي فات... بصمات وخطوات من سيرة ذاتيّة (هي محطّات هامّة في حياة الشّاعر و مازالت راسخة و حاضرة في ذاكرته ...)

وأخيرا :

13- حوار مع الأديب عبد المجيد يوسف ص 353.

 رأيت أن أقسّم هذا التّقديم إلى جزئين : الأعمال الشّعريّة و مقالات مختلفة تحت بصمات وخطوات :

عنوان قراءة في الأعمال الشّعريّة

 تنوّعت كتابات وأعمال الشّاعر بين القصائد العموديّة و الأعمال القصيرة التي تسمّى بالومضة أو الشّذارات وبين القصائد الطّويلة أو الملحمة ومنها التي باللّهجة العاميّة التّونسيّة ومنها ما يشبه القصّة المنثورة في السّرد أو القصيد الحرّ أو الموزون ...

 بالنّسبة لعدد قصائد الشّاعر العموديّة هي في حدود 30 و ما جاوره وأغلبها وردت في المجموعات الشّعريّة الثّلاث الأخيرة (حارق البحر- عاليا .. بعيدا - واحدان ) وهذه عناوين بعضها :

تطاوين ص 173

الصّورة القديمة ص 176

الخمسون ص 177

القلم الذّهبيّ ص 188

عروس البحر ص 188-189-190

القصيدة المنوّرة ص 197-198-199

زغاريد الجنازة ص 208-209

الوداع ص 212-213

المحفظة ص 214

وائل ص 218

شبق الورد ص 230

شهرزاد الثّانية ص 262

السّهرة – الفنجان ص 263

شهدة – الفستان – ص 264

صورة – من العتيق –العمارة –الكانون ص 265

المشكاة ص 270

الاخ.....

 إنّ انتقاء الشّاعر لعناوين مجموعاته الشّعرية فيه حكمة وخبرة و حنكة كذلك الشّأن لعناوين القصائد ... فأحيانا تبدو لنا العناوين مثيرة غريبة عجيبة وأحيانا تبدو عاديّة مجرّد أسماء مأخوذة من الواقع ... كما أن ّ عناوين المجموعات الشّعرية ليس له ارتباط بعنوان قصيدة تدرج في المجموعة بل يمكن، أن يكون عنوان المجموعة الشّعريّة القاسم المشترك بينها من حيث المعنى والموضوع والفكرة، باستثناء مجموعتين "صديد الرّوح" و"واحدان" فكلاهما تتضمّنان نصّا يحمل ذلك العنوان .

 عناوين القصائد كما ذكرت هي الأخرى متنوّعة - مختلفة - منها المألوف ومنها الملفت للنّظر ... فالشّاعر سوف عبيد ما خلّف اسما أو شيئا في الواقع والحياة اليوميّة أو في الطّبيعة إلاّ كتب فيه وجعله عنوانا لقصائده ... فقد كتب في العتيق كما كتب في الجديد – الحاضر، الماضي والغيب- البحر والبرّ- الجو، النجوم و الفلك - الحلم، اليقظة و الخيال- الحيوان و الإنسان وحتّى الدّيناصورات - المطلق و المجرد - الخاصّ و العام - المرأة والحبّ- الصّداقة والخيانة - الأبوّة، الإخوّة ،الأمومة والأبناء- الحمل و الولادة - الزّمان و المكان - التّكنولوجيا والحضارة - الموت والفناء - المحفظة والألعاب .....

 كما توجد بعض العناوين للقصائد الشّعريّة تتكرّر في مجموعاته الشّعريّة

من ذلك :

القطار ص 67 - القطار 76 – القطار ص122- القطار الأخير ص 260- كلمة القطار ص 275

الورود والأزهار: باقة ورد ص 68- أزهار ص77- الوردة ص80- زهرة اللّوز ص 91 -وردة الرّمل ص 99- القرنفلة ص 145- الوردة و الشّكلاطة ص 228- شبق الورد ص 230- زهرة التّوليب ص 232- زهرات المرمر ص 239 ..

الأشجار والأوراق: النّخلة ص 45- أوراق ص 86- الورقة ص 103- الشّجرة ص 108-الزيتونة ص118- الشجرة ص 144- الشجرة الدّامعة ص 225 - الشجرة وورقاتها ص 240- الأدغال ص 244- محطّة الأشجار ص 244-...

الحيوانات :الحصان الأبيض ص 17- العنكبوت ص 23- النّملة ص 34- خيول الإفرنج ص 35- الجمل ص 67- الدّجاجة والبيضة ص 85- الذّئب ص 106- السّمكة ص 107- حصان الطّين ص 111- السّلحفاة والغزالة ص 235- حمامة ص 240- سمكة البرّ ص240 - الدّيناصورات ص 242- خروف اللّمس ص 258- المهرة ص 263 ...

الطّيور : العصافير والماء ص 15- عصفورة ص 16- طيور اللّيل ص 54- العصافير ص74- عصافير الجنّة ص 94- الطّيور ص 138- الكروان ص 232- حمامة ص 240-...

المرأة : أجمل البنات ص 23- حوريّة ص 51- عارضة الأزياء ص 94- امرأة الفصول ص 127- شهدة ص 264- فارسة ص 268-...

الغلال والفاكهة : التّفاحة ص 39- البرتقالة ص 48- البرتقالة والسّكين ص 142- رواية أخرى للتّفاحة ص 241

شهرزاد ص 93- شهريار ص 93- شهرزاد ص 130- شهرزاد 2.ص 262

الحضارة والتّكنولوجيا : البريد ص 64- البناء ص 64- الرّسالة ص 70- برقيّة ص 110 - رسالة ص 155- الهاتف ص 109- العمارة ص 265

فاتحة لزمن جديد ص 114- الفاتحة ص 173- الفاتحة ص 258

السّيجارة ص 71- النّارجيلة ص 79- السّيجارة ص 241

الأرقام والأعداد : الأربعون ص 103- الخمسون ص 105- الثّمانون وعام ص 173- واحدا اثنان ص 268

الوداع ص 194- الوداع ص 212 - بلا وداع ص 242

 يبقى السّؤال مطروحا هل هذا التّكرار لهذه العناوين مقصود ؟ و هل في هذا التّشابه للعناوين اتّحاد في الفكرة والموضوع ؟ وهل العنوان هو مجرّد إيحاء و ترميز أم تضليل وتمويه ...؟

 كما لاحظت في هذه الأعمال حرص الشّاعر على أن تكون النّصوص متجدّدة متنوّعة في كلّ مرّة سواء من حيث الفكرة أو من حيث الطّرح والصّياغة ... و هنا تكمن الفطنة والخبرة في استحضار الأساليب الطّريفة والمثيرة و التي لا تتحقّق إلاّ بالتّكتكة والحنكة كلاعب شطرنج و خصوصا عند اقتباس الخاتمة للخروج من النّصّ فتكون مفاجأة ومباغتة وغير منتظرة...

 نستشفّ أيضا في قصائد سوف عبيد السّخرية والاستهزاء ، الهزل والفكاهة حينا و الحسرة والنّدم حينا آخر(خصوصا عند استرجاع الماضي والذّكريات ) ...

عناوين القصائد في بعض الحالات ليس لها ارتباط أو علاقة بمضمون النصّ ولا تعبير عنه فقد يكون العنوان تلميحا و إشارة أو إحالة إلى فكرة و قضيّة ما ... فالمشاهد والصّور حاضرة باستمرار وبكثافة وغزارة ...

كيف لا ؟ والشّاعر يمسك بناصية الأدب والشّعر فيصول ويجول بقصائده من خلال ثقافته الشّاملة والمعارف الحاصلة لديه و من خلال المهارات الفنيّة التي يكتسبها فتراه يتذوّق ويتفنّن في كتابة نصوصه الشّعريّة ...

 الملاحظة الأخيرة في هذا التّقديم التي رأيتها هي أهميّة المكان والشّخصيّات في نفسيّة الشّاعر فكان التّأثير واضحا جليّا في قصائده سواء بالتّباهي والفخر والاعتزاز أو بالتّحسّر والتّألّم أو بالمقابلة خصوصا عندما يذكر الماضي وطفولته والرّبوع التي نشأ فيها والأشخاص الذين رافقهم وعايشهم والتقى بهم وأخذ وتعلّم واستفاد منهم أو عاش معهم اللّحظات والسويعات السّعيدة ...ويبدو ذلك في الجنس الأدبي الذي يكتبه فقد اعتمد المجاز والاستعارة بشتّى أنواعها واعتمد الوصف والتكثيف من الصّور خصوصا عند ذكر المرأة التي نلمس حضورها جليّا فهو يرى فيها العفويّة والبراءة، الوطن والهويّة ،الصّدق والجمال و الألوان، الأرض والسّماء ،الفرح والسّعادة ، الحبّ والحنين ،الحلم و الاشتياق، الزّهور و الطّيور والطّبيعة بكلّ صفائها وبهائها ...

 القراءات العامّة للمجموعات الشّعريّة :

ينتقي سوف عبيد لقصائده أجمل الصّور ويرسمها في لوحات فنيّة رائعة فهو كحامل الكاميرا الذي يلتقط الصّور والمشاهد بدقّة من الجزء إلى الكلّ أو العكس أمّا المقاصد والمغزى والمضمون فيظل المعنى مطابقا للمبنى فهو يستعمل الاستعارة والمجاز والإيحاء والتلميح

ويبقى المجال مفتوح للقراءات والتّأويلات ...

ورغم أنّ أغلب قصائده لم تخل من شاعريّة المكان ( الانتساب إلى بقعة من الأرض قضّى بها طفولته : غمراسن ) والإنسان والقيم ( الوفاء – الوطن – العائلة – الحبّ – الرّثاء ... )

وكذلك المرأة والحياة بألوانها نجده يكتب في الجانب الرّوحي والوجداني والجانب الواقعي الملموس بما فيه من خيبات وانكسارات وإحساس بالمرارة إلى حد الغصّة ...

هكذا هو الشّاعر بين مبنى ومعنى ينتقل في شعره مع الحرف والإبداع في الماضي والذّكريات مع الواقع والأحلام والزّهور والأطيار و قيم الإنسان ...

 - المجموعة الأولى : الأرض عطشى :

أوّل القصائد التي استفتح بها الشّاعر مجموعته الشّعريّة الأولى " الأرض عطشى " وتتصدّر أوّل أعماله في ديوانه هو نصّ" البدء" ص 11 لكن أيّ بدء يشير إليه ؟ هل يقصد البدء في كتابة الشّعر ؟ أم البدء في فهم اليحاة واستطعامها ؟ أو البدء في الخلق في الأرض والكون ؟ وتغنّى في هذا النّصّ بالحياة والأرض والكون ، يناجيها لتكون كريمة سخيّة عساه يرتوي من مائها و يحيى من خيراتها فتستمرّ الحياة خضراء جميلة فيقول :

......

أيّتها الشّمس الغائبة خضراء

هذا جبيني مسار لك

أحبّيني يا موجة البحر في العميق

أحبّيني أيّتها القارّات الخمس

فالأرض عطشى ... فالأرض عطشى

أحبّيني يا خضرة عشب المقابر

أحبّيني خضراء

هذه يدي جناح طير

رجليّ صخرة معراج

لحمي - دمي – عروقي

تربة - جذور - خضرة الشّجر

تناسل عفن الأرض

في هذه المجموعة الشعريّة الطّبيعة حاضرة بكثافة وفي عدد هائل من نصوصها ، فهناك دعوة للشمس والأرض والسّماء - الكواكب والنّجوم - البدء والخلق - الموت والبعث - الحبّ والأمل - الفقر والتفاؤل - البراءة والعفويّة ...

 من ميزات الشّاعر أنّه يحمل في طيّاته أسمى صفات الإنسانيّة ومعانيها ويطمح أن تشمل العدالة كلّ النّاس فيعيشوا في كنف الحريّة والمساواة وبما أنّ الله قد خلق الكون في أحسن صورة فلم لا نحافظ عليه جميلا بديعا كما هو؟

وتأكيدا لدعوته إلى التّلاحم والاتّحاد روحا وفكرا وجسدا إلى آخر الرّمق جاء نصّه "عناق" ص19 يقول فيه :

أغلقت نافذتان

تسلّل إلى المقبرة شيخان

بدأ الشّيخان يلتحمان

وتوسّدا شاهدة القبر

 المجموعة الثانية " نوّارة الملح " ص 22

لم تخل هذه القصائد من الجانب الإنساني والوجداني والتّعبير عن الواقع بما فيه من حزن ومرارة وفرح و غبطة أوباسترجاع الذّكريات و بالحديث عن الوطن والكائنات والحبّ والعتاب ...فجاء في نصّ " الجسد" ص 23 معبّرا عن تساوي الأضداد عنده :

أيها الجسد

اشتعل وانطفئ

كلهيب المدفأة

 كرماد المنفضة

فأنت الليلة

رجل

بدون

امرأة

وفي نصّ التّفاحة ص 39 كتب معبّرا عن شهوة آدم وتلك الأسطورة القديمة وأنّ الإنسان مهما تعالى لا يستطيع التّخلي عن غريزته فقال :

.... ....

.... ....

اللّقاء الثّالث

خلعا خرق الدّنيا

لبسا أوراق الجنّة

وأكلا التّفاحه ...

من خلا ل هذين النصّين تتجسّد لنا فكرة أن الشّاعر إنسان قنوع يعيش واقعه بكيفيّة عاديّة ، يؤمن بالقدر وما كتب له سواء كان القضاء قاسيا أو مريحا أو كان في عزلة وغربة أو كان في سعادة وهناء ...فالشّاعر يتكيّف مع الظّروف يتأقلم معها بحسب الوقت فهو لا يعادي ولا يتمرّد ولا يثأر ولا ينتقم ..

 المجموعة الثّالثة :امرأة الفسيفساء

نقلنا الشاعر هنا إلى عالمه الجديد بحيث أصبح ربّ أسرة و أبا وما يترتّب عن ذلك من واجبات والتزامات فعبّر عن تجاربه الحياتيّة ببلاغة وحكمة فجاب بين القصيد العمودي والقصيد النّثري وكلّ الأجناس الأدبيّة فعن ابنه الرّضيع كتب في نصّ سهرة ص 54 :

زياد

لم يتناول من رضاعة البارحة

قطرة واحدة

أعلن الصّراخ على اللّيل ...

أم أن الأرض عليه وضعت أوزارها

وقذفت من صدرها

في قلبه

 أسرارها

ثم حلّت بين يديه

تدور

 وهي تثور

نرى الشاعر يصف تجربة جديدة ما تعوّد عليها من قبل ولابدّ أنّ جميع النّاس قد مرّوا بمثل هذه التّجربة الصّعبة وهذه المعاناة وهي تجربة الأبوّة وما يترتّب عليها من مصاعب و مسؤوليّات في سبيل تربية الأبناء والعناية بهم ...

أمّا في نصّ "طيور الليل" ص 54 يقول :

...اللّيلة

مصابيح البيت جميعها أنرتها

لتأوي إليّ طيور اللّيل ..

 هل يعبّر الشّاعر هنا عن سعادته و تفاؤله ويمنّي نفسه بغد أفضل أم عن حالة وجدانيّة خاصّة جعلته يحاول التّهدئة من روعه ؟

وفي ما يخصّ الخيانة قال في نصّ "غياب " ص 54:

كل الّذين أحببتهم

 أقاموا صدور مطيّتهم

 رحلوا ... شكرا

دعوني أرجوكم

على تعبي أستريح

كذلك في نصّ فراق ص 55 يقول:

الّتي أحببتها

 ...

 عقدت لها موجتين

 على الخصر

 ثم انسابت سمكة .

إنّها الحياة بفواجعها و مفاجآتها التي يجب تقبّلها فنادرا ما نجد من يقابل الوفاء بالوفاء، أمّا التّنكّر فما أكثره إذ يذوب المتنكّرون كالملح وينفلتون كالزّئبق ...

على عكس ذلك في نصّ البرتقالة ص 48 يتغنّى الشّاعر بأميرته فيقول :

... ثم نصّبتك أميرة

 من الماء

 إلى الماء

هكذا كانت قصائد سوف عبيد في مجموعته امرأة الفسيفساء تروي قصصا و أحداثا معاشة حلوة ومرة تكاد تكون سيرة ذاتيّة غير أنّ الشّاعر أدخل عليها طرافة بأسلوب رشيق وشيّق وبالنقش والتطريز في صياغة القصيد ...

 الفترة السيّاسيّة التي واكبها الشّاعر لها أهميّتها أيضا ، كيف لا وهو يشاهد البلدان العربيّة تسقط الواحدة تلو الأخرى في الشّرك الذي وضعه لها العملاق المهيمن، فقال في نصّ " سنة أولى ببيروت" ص 52-53 :

فالعنكبوت في كلّ البيوت

 من غرناطة إلى بيروت (1985)

نعم أنت محقّ و مصيب أيّها الشّاعر فمنذ حلّ العملاق بشرّه و بطشه في الأوطان العربيّة ما بارحها وما غادرها وها نحن إلى اليوم نشاهد بلدانها تقع الفريسة تلو الأخرى في شرك الصّياد العظيم تاركا السمّ ينهش قلبها ...

 المجموعة الرّابعة : صديد الرّوح

نصوص هذه المجموعة لا تخلو من الجانب الإنسانيّ كسابقتها والوقوف على الأطلال والعود إلى الذّكريّات والحنين إلى الماضي كذلك التّهكّم من الحياة و كلّ ما يصادف الإنسان من صدمات متتالية وطعنات مؤلمة غير أنّ الأمل يظلّ شعاره فيقول في نصّ معا أو بلا ص 73 - 74 وهو ترجمة للأديب صالح القرمادي :

بالصّداقة نحيا أو بلا صداقات

بالعقل أو بالجهل نحيا ...

في الحرب نحيا أو في السّلام ...

فرغم المصيبات والهرم

لنعيش الحياة على هوانا

برغم الممات

برغم العدم

وجاء في نصّ العصافير ص 74 - 75 :

في عشّ القلب

حطّت عصافير

طارتْ عصافير

والولد الكبير

مازال يطرق باب قفص

أكبر

ثمّ يهزأ من الرّتابة والرّوتين الذي يحياه الإنسان فقال في نصّ "سعادة" ص 92 :

اسمه

سعيد

اسمها سعيدة

ساكنان في حيّ السّعادة ...

عشر ساعات

هو آلة خراطة

هي آلة خياطة

سعيد

سعيدة

 جالسان على العشاء

 ثمّ

 تصبحين على خير

 تصبح على خير

أسدلا الغطاء.

أليس هذا استهزاء و سخريّة من الواقع و الحياة اليوميّة والوضع الذي يعيشه الإنسان كلّ يوم وكلّ ليلة إذ الرّتابة تقتل كلّ شيء جميل وتقضي على السّعادة ...

يستمرّ الشّاعر في سخريّته من كلّ شيء ، من ذلك التّعليم والدّرس والتّدريس الذي يعتمد على التّلقين فيقتل الإبداع في الإنسان وفي شخص الطّفل ويبرز ذلك من خلال انتقاده للمنظومة التّعليميّة التي يعتمدها النّظام السّياسي ويفرض على الشّعب أشياء مملاة عليه وبدوره يعيد إملاءها على الأفراد لكنّ الوعي يرفض الإذعان والخضوع ويطمح إلى الحريّة و التّحرّر والطّيران بعيدا فجاء هذا الانتقاد والنّقد في نصّ :

"سبق لسان" ص 92

كتبت المعلّمة على السّبورة

 كلّما رأيت قفصا

 تذكّرت العصفور

قرأ التّلميذ

كلّما رأيت قفصا

 تذكّرت الحريّة

هل يوجد تعبير أروع من هذا للتّعبيرعن توق الإنسان لحريّته ؟

وفيما يخصّ الغرور والرّجال والبطش والأنانيّة و المجتمع الرّجالي وما نتج عن ذلك في المجتمع وفي الأشخاص قال الشّاعر في نصّ شهريار ص 94

....

أيّها الغارف البحر ...

 اللّيلة

 ستنتظر الدّيك

 طويلا

 شهرزاد أمست خرساء

 وفي نصّ عروس البحر ص 94 يقول:

جالس

 في يده قصبه

 ....

 وما لامس الشصّ

 يا خيط العمر

 عروس البحر.

هكذا هي الخيبات والنّكسات الّتي تبقى عالقة بمرارتها في الفم وهكذا هو العمر الذي يفنى بلا عودة والدّهر الصّعب المقيت الّذي لا يخلّف إلاّ البشاعة و النّدم ...

قصائد الشّاعر سوف عبيد كما سبق أن أشرنا لا تخلو من المباغتة و النّهاية الغير المتوقّعة ، ففي نصّ" فضل العين" يقول:

عين أوّل الكلام

عين وسط الكلام

 في آخرها عين

............

 عين بلا عين

 أصلح الرّاوي من عمامته

 ثم أغرق في العنعنة .

أي راو يقصده الشّاعر هنا ويتحدّث عنه والذي سيظلّ يتفلسف ويتفنّن في عنعنته والمنصتين لهذه العنعنة يا ترى هل هم في وعي لما يسمعون من عنعنة أم تراهم في سحر مشدودين إلى العنعنة ؟

ويأتي نصّ " قرطاج" ص 96:

يده اليمنى

 تحت صدرها

 يده اليسرى

 تحت ساقها

 .......

 رويدا رويدا

 أدخل العامل تمثال المرمر

 إلى المتحف

إنّه الإبداع بعينه ...الشّاعر يحملك بالوصف والصّورة إلى مشهد متحرّك وربّما يحيد بك في التّفكير والتّخمين إلى شيء ما ..إلاّ أنّ الخاتمة الغير المتوقّعة كانت مباغتة ومراوغة سحبتنا بسرعة إلى الواقع لنكتشف نهاية لم تكن في الانتظار ...

التّهكم متواصل في القصائد سواء من الأفراد أو من الجماعات أو من الحكّام ففي نصّ قوس قزح ص 96 يسخر الشّاعر من المجتمع المتهاون... من المجتمع المسكين... من الإنسان المتردّي ... من المنافق ... ويأتي نصّ "وردة الرّمل" ص 99 - 100 ليعبّر عن خيبة أخرى للشّاعر تركت مرارة وغصّة في الحلق فيقول :

أغنّيك للبحر

لطيور البحر

على زبد البحر أغنّيك

أغنّيك للرّيح

بأنامل الرّيح

....

....

نرسم وردة الرّمل

أغنّيك

في العاصفة

مكثت أغنّي

 و أغنّي

 حتى غصصت

بأغنيتي ؟

وفي نصّ" لزوم ما يلزم" ص100 وهو آخر نصّ في المجموعة جاء :

عصفور القفص

 عليه أن يزقزق

 وأن يغنّي للحرية

 قبل أن يموت

هكذا هي الحياة، فإما حياة وإمّا فلا ؟

و"إذا الشّعب يوما أراد الحياة فلابدّ أن يستجيب القدر"

فهل يحبّ الشّعب الحياة ؟ وهل هذا القدر سيستجيب ويضحك له ؟

 المجموعة الخامسة "جناح خارج السّرب" :

أي جناح يقصده الشّاعر سوف عبيد فيقول عنه إنّه خارج السّرب ؟ المعلوم أن السّرب هو واحد في انطلاقه وفي وصوله فكيف لهذا الجناح أن يخرج عن المجموعة ؟

هكذا يبدو الشّاعر منفردا، مختلفا عن بقيّة أفراد السّرب ،مغايرا في حبّه للآخرين ،في معاملاته بمن حوله، في إخلاصه و وفائه ،في طيبة قلبه وصفائه ،وحتى في فشله و في خيباته و إحباطاته ...

ثمّ جاء نصّ " أربعون" ص 103: الذي يأسف فيه الشّاعر مرور الأعوام سريعة و ذهاب العمر هباء، دون أن يشعر بذلك فيقول:

منذ أربعين

 انتشق سيفا من جريد النّخل

 ......

 منذ ثلاثين

 أشعل السّيجارة الأولى

 منذ عشرين

 يبحث عن رجل

....

 هذا الصّباح

 لاح له البياض في المرآة

 فالتقى بالطّفل الّذي فات .

أ ليس هذا القصيد قصّة تلّخص حياة إنسان بلغ سنّ الأربعين... وحينها تفطّن إلى الشّيب الذي كسا شعر رأسه عاد به الشّوق والحنين إلى الذّكريات البعيدة إلى ذلك الطّفل القابع في زاوية ما من الذّاكرة ؟ الإنسان في سنّ ما قبل العاشرة يكون طفلا يلعب ويلهو ... يتعلّم السّيجارة لمّا يصبح شابّا في سنّ العشرين ... وفي الثّلاثين من عمره تجده يبحث عن الاستقرار فيتحّمل المسؤوليّة ويشرع في بناء حياة زوجيّة ... ثمّ بعد ؟ و ماذا بعد ؟

و يأتي نصّ "التّاج "ص 104 الذي يقول :

المصارع الأنيق

 يغادر الحلبة

 قبل أن تدوسه

 حوافر الثّيران

عاش من عرف قدره ... وكم جميل أن يعرف كلّ شخص حدوده وحدود إمكانيّاته ويكرم ماء وجهه بنفسه ونقول بلهجتنا العاميّة الشّائعة "كرم لحيته بيده..." فالمرء العزيز النّفس لا يترك نفسه عرضة للاستهتار فيقلّل من شأنه بسبب اختلاطه بمن هم أقل مستوى منه رقيّا وعلما وثقافة و قيما ويقول مثل شعبي آخر : اللّي يخلّط روحو مع النّخالة يبربشو الدّجاج "

نصّ "الجزيرة "ص 105 :

آخر رحلة للسّندباد

 بحر بلا سمكة

 صيّاد بلا شبكة

لقد رجع بخفّي حنين، أليس كذلك ؟ هذه الصّورة الجميلة التي عبّر عنها الشّاعر في ومضة قصيرة ومكثفة (سبع كلمات ) تتضمّن الكثير من التّلميحات وتحملنا إلى عدّة قراءات هي فلسفة بحالها – حلّل وناقش – ما البحر ؟ وما السّمكة ؟ ومن الصّياد ؟ وما الشّبكة ؟

نص "الحسين" ص 105 أيضا هو نقد و استهزاء من واقع العالم العربي :

......

 دمه الأحمر الأخضر عربيّ

 يباع في المزاد

 قطرة ...قطرة

 من غرناطة

 إلى بغداد .

قمّة في الإبداع ودقّة في الوصف لواقع مشحون بالخسائر والأحزان ويقولون نحن هنا نحن إخوان ، ديننا الإسلام ...

هكذا صار العرب يهدرون دماء بعضهم البعض يتناحرون ويتقاتلون منذ عهد الحسين إلى يومنا هذا من أجل الخلافة والحكم يتّخذون الدّين و الإسلام مطيّة و حجّة للتّغطية ولإباحة ما ليس مباحا ... فكانت نهايتهم الضّياع والشّتات وسفك الدّ ماء وبيع البلاد في المزاد ....

نصّ "الزّيارة "ص 106-107: على عكس النصّ أعلاه إذ الشّاعر يتغنّى بحبيبته فيقول :

ربّما أغيب

....

 فيا زائرتي كلّ يوم جمعة

 أسرعي نحو خزانة الملابس

 وأسكني يدك جيب الصّدر

 ستجدين قلبي شديد النّبض

 كما كان دائما

 في انتظارك.

تعبير عن الوفاء والإخلاص للحبيب وعلى البقاء على العهد حتّى يحين موعد اللّقاء...

 يواصل الشّاعر الكتابة عن الحبّ والاشتياق للحبيب وعن مدى السّعادة باللّقاء والنّشوة التي تغمر القلب والكيان فتجعله مختلفا و مغايرا ممّا جعله يخرج عن السّرب ليكون جناحا منفردا بنفسه يرفرف بعيدا في أجواء الفرح ...

فيقول في نصّ "السّماء السّابعة "ص 107:

شفتاها

 جناحان من الورد

 جناح داخل القلب

 جناح خارج السّرب

 عندما ابتسمت

 رفرف ثغرها عاليا

 بعيدا

 في سماء القبلات

 أ ليس هذا دليل على أنّه حقّا "جناح خارج السّرب" يطير بمفرده في غمرة الحبّ ؟

وتقوى بالشّاعر مشاعر النّشوة إلى حدّ الثّمالة ويأتي ذلك في وصف سكرته في نصّ "الماء والنّار" ص 108

.....

ماء ونار

مرج البحرين

يلتقيان

إذا أسدلت أهدابها ريحانة

فأنّى يحرث

سبحانه

توت ورمّان

الشّاعر سوف عبيد إلى جانب إبداعاته وتواضعه ،هو حريص على أن يكون مثاليّا ووسطا في كلّ شيء دون تطرّف لسلوك أوجهة أو تيّار... فهو مازال يتعلّم و يتعلّم وليست المدرسة وحدها التي تعلّمه إنّما أيضا الماضي و كل ّ ما فات من تجارب هي دروس الحياة ويأتي في نصّ "المحفظة " ص 109:

علّمتني المحفظة

 القطار الذي فات

 لا تلهث وراءه

 فالذي يحبّك

 سيحبّك أكثر

 وهو

 ينتظر .

نعم والمثل التّونسي يقول "اللّي يبيعك بالفول بيعه بالقشور " و "اللّي ينساك انساه "

 " المحفظة" عنوان القصيد يوحي بأ شياء يذهب إليها الذّهن عند الوهلة الأولى (المحفظة هي أداة ووسيلة يحملها الطّالب لوضع الكتب وكلّ الأدوات المدرسيّة للتّعلّم ... ) لكنّه عندما يطّلع على النصّ يفاجأ بشيء آخر، بفكرة جديدة ليست لها صلة بالعنوان ... فالمحفظة التي هي رمز للعلم والتعلّم هي أيضا تجسّد الحياة ، والحياة دروس وتجارب عديدة يتلقّاها الإنسان و يتعلّمها ويخوضها في كلّ زمان ومكان ...

ونجد في نفس المجموعة قصيدة ثانية تحمل نفس العنوان "المحفظة " ص 109 ويقول نصّها الذي هو يختلف عن مضمون النصّ الذي سبقه فالمحفظة هنا تعني تلك المحفظة الملموسة التي يحملها التّلميذ عندما يقصد المدرسة للتّعلّم ولوضع أدواته فيها :

....

ثمّ أسرع نحو المحفظة

... مهلا

أيّها الصّبيّ ... مهلا

ربّما

تشيب قبل أبيك

هنا الشّاعر يستبشر بابنه الذي كبر وبلغ سنّ الدّخول إلى المدرسة ولهفته لنهل العلم والمعرفة

أمّا نص "الهاتف" ص 109 فيحلّق بك بعيدا لتجد نفسك تنزف دما، فما هو الخبر المؤلم الذي تلقّاه الشّاعر يا ترى من مخاطبته عبر الهاتف والذي جعله يفقد صوابه ولا يتفطّن للأذى الذي حصل له فيقول :

قابضا على السّماعة مكثت

 فإذا بيدي

 بالدّم .

ونجده في نصّ "برقيّة "الذي هو عبارة عن ومضة تتألّف من خمس كلمات ص 110 يقول :

القبر مفتوح

 ينتظر

 وصول الجيفة .

وهل يتّسع القبر لشيء آخر غير الجيفة ؟ وما البرقيّة إلاّ إشعارا و تنبيها بالخطر الذي قد يحصل بسرعة غير متوقّعة ... والشّاعر هنا يريد التّلميح أنّه جاهز لأي شيء مسيء لأنّه اعتاد على ذلك ...

صورة أخرى يقدّمها الشّاعر سوف عبيد عن جناح خارج السّرب ليؤكّد لنا أنّه فعلا يختلف عن السّرب وأنّ فيه من القيم الثّابتة التي تربّى عليها وأضحت من سلوكاته اليوميّة والتي تكاد تكون منقرضة عند الآخرين وهي الصّدق ،الأمانة ،الوفاء والإخلاص فيعبّر عن ذلك في مشهد رائع يعبّر عن ظاهرة اجتماعيّة نلاحظها ونعيشها جميعنا يوميّا ... يصف فيه أدقّ الأشياء التي قد لا تخطر على بال الأشخاص الذين يعيشون حياة البذخ لأنّهم يوكلون تربية أبنائهم والأعمال التي قد يرونها صغيرة وبسيطةولا يولونها أهميّة إلى الخدم ...

فيقول في نصّ تفتيش ص 110:

عند العودة

 الصّبي يفتّش جيب أبيه

ليظفر بالحلوى

 تماما مثل أمّي

 كم فتّشت جيوبي

بحثا عن السّجائر

 فاطمئنّي يا امرأة

 ليس ثمّة في تلافيف ثيابي

 من ريح لأنثى

 سواك .

أليست هذه لوحة تجسّد مسيرة حياة بأكملها ؟ ألا يصف الشّاعر مشهدا يعيشه تقريبا كلّ النّاس يوميا ؟ فالأمّ تراقب ابنها خلسة في بعض الأمور حتّى لا ينساق في المجتمع لبعض الظّواهر السّلبية حتّى تحافظ على تربيته وتصونه من الفساد خاصّة السّجائر وما شابهها ... والابن الصّغير يفرح بعودة أبيه فيفتّش جيوبه بحثا عن شيء يحمله له لأنّه تعوّد ذلك ... والزّوجة في مجتمعاتنا العربيّة ألا تفتّش هي الأخرى جيوب وأمتعة زوجها في السّرّ لتتأكّد أنّ لا شيء يخفيه و ما يجعلها تشكّ وذلك من باب الغيرة أو الخوف عليه من تورّطه مع امرأة غيرها ... غير أنّ الشّاعر اختصره لنا بأسلوب فنّيّ ، إبداعيّ وطريف ...

 المجموعة السّادسة : نبع واحد لضفاف شتّى :

في هذه المجموعة تقريبا يعبّر الشّاعر عن اندهاشه من المخلوقات والكائنات ومن عظمة الخالق وإحكام صنعه في الكون وهنا تبرز فطنته وانتباهه للجزئيّات والأشياء الصّغرى التي قد لا يلمحها ولا ينتبه إليها أحد فيقول في نص" إبداع " ص 118:

زهرة بين الاسمنت والحصى

تتفتّح أمام القطار

على سكّة القطار

...

نتبيّن هنا عظمة الخالق في البعث للكائنات مهما كان الأمر يبدو مستحيلا ؟

 الحياة لا تستحقّ الاستسلام ولا اليأس بل على الإنسان أن لا يفقد الأمل حتى آخر لحظة في حياته وظلّ صامدا متحدّيا لكلّ شيء .

أمّا في نصّ " القطار" ص 122 الشّاعر يصف مراحل حياة الإنسان التي يمرّ بها وكما ورد في نصّ القرآن الكريم قوله تعالى :"ولقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ، ثمّ رددناه أسفل سافلين "

الشّاعر سوف عبيد عبّر عن تلك المراحل بذكاء وعلى غاية من الرّشاقة باستخدام عبارة القطار التي كثيرا ما استعملها الأدباء والشّعراء في نصوصهم فالقطار يعني الحياة التي تمرّ، والقطار هو الذي يطويها طيّا كما يطوي الطّريق والسّكّة ...والعمر يمضي بنا ولا يعود ولا ينتظر، فقال :

في السّابعة

كان يعجب من الذين يصعدون

القطار

في السّابعة بعد العاشرة

صار يفعل مثلهم

في السّابعة بعد السّبعين

...

متّكئا على رجل ثالثة

من صفات الشّاعر أيضا الاختصار وعدم الثّرثرة و أنّ أبلغ الكلام هو الذي لا يقال بالكلام و المثل يقول :" إذا الكلام من فضّة فالسّكات من ذهب "

فجاء في نصّ المتن والحاشية ص 123- 124 :

.....

لا تقل في الحبّ

سبق السّيف العذل

أبلغ الكلام

يقال بالقبل

هكذا هو الشّاعر سوف عبيد يكره القول ويحبّ ويؤكّد الفعل فهو إن تحدّث عن الحبّ أو المرأة لا يعبّر مباشرة عن ذلك إّنما يرسم الصّورة المناسبة لها ويقتبس لها الاستعارات التي تليق بها فيكون التّعبير مختصرا لكنّه أدقّ و غزير المعني ونلاحظ ذلك أيضا في نصّ "المدفأة "ص 124:

في جليد ليل الشّتاء

الشّاتي

مدّت يدها نحو المدفأة

فحرّكت بأناملها

جمرات القلب

وفي نصّ "المرآة "ص 124-125 الذي يرمز فيه إلى المرآة بالحياة الدّنيا التي نتيه فيها وتتيه بنا وتمرّ السّنون على عجل من أمرها دون تفطّن لها إلاّ بعد فوات الأوان حين نجد أنفسنا عند السّفح :

...

لمحت عند سفحها

هامتي

... غير أنّي لم أكن أعلم

أنّها تنقص لي كلّ يوم

من حساب السّنين

تتواصل حسرة الشاّعر على كلّ فترة من فترات العمر فتجده يضع كلماته ويشكّل قصائده في لوحات فنيّة رائعة وكأنه يسرد علينا حكاية من حكايات الأجداد أو ألف ليلة وليله فيقول بعد مرور أربعين سنة على الحدث في نصّ "المصافحة" ص 125 وعندما التقى صديق الطّفولة الذي كان أمهر الأطفال في الرّماية ... لكنّ الأيّام دارت والدّهر تنكّر وتحوّل ضدّه ففقد يده عندما كان يلعب ببعض بقايا الحرب وهو لا يعلم ماذا تكون ...:

...

لعب يوما بلعبة من بقايا الحرب

فصار

 يصافح...بلا يد

وفي نصّ "النّافذة "ص 126:

....

كيف لك

بجبر بلّوره

قلبي

العاشق مجروح وقلبه زجاج وبلّور مهشّم ومكسور و لا يجد من يرمّمه ويصلحه في حين أنّ والده يصلح زجاج نوافذ الجيران والتي حطّمت قلب ابنه تطلّ من خلف زجاج النّافذة ... الذي أصلحه والده ...

ويقول في نص "ألوان" ص 126 - 127 :

....

كيف أنجو كلّ يوم

من حبل المشنقة ؟

ترى أيّ مشنقة يتحدّث عنها الشّاعر ؟ وهو الذي بدا سعيدا عند اختياره للون القميص الذي سيلبسه قبل الخروج وأيّ ورطة ورّط نفسه فيها ممّا جعله مسائلا كيف السّبيل للنّجاة ...

وفي نصّ" اليوم الثّامن " ص127 يقول :

...

....

لو كان في الأسبوع يوم آخر

لمكثت أمام نافذتها

طول العمر

أنتظر

إنّه العشق فكيف لا يتمنّى يوما ثامنا في الأسبوع ويمدّد له الله في عدد الأيّام ....

ثمّ يعود بنا الشّاعر في نصّ " مدينة الألعاب " ص 133 إلى الماضي والطّفولة والألعاب التي لعبها واللّعب التي صنعها ... والسّبب الذي جعله يسترجع هذه الذّكريات هو زيارته لمدينة الألعاب العصريّة عندما رافق ابنه إليها للتّرفيه فاندهش لما رأى في مدينة الألعاب من تطوّر وتقدّم في الصّناعة والتّكنولوجيا في حين كانت ألعابه في الماضي بدائيّة و بسيطة ، تصنع باليد....

...

في مدينة الألعاب

لم أجده

لم أجد تلك اللّعب

اشتكيت... وبكيت

فسلاّني الأدب

يهرب الشاّعر على صغر سنّه إلى الأدب كلعبة يتسلّى بها بما أنّه لا يمتلك وقتئذ لعبا يروّح بها عن نفسه فكان الأدب أجمل لعبة وما أجملها لعبة ...

 المجموعة السّابعة "عمر واحد لا يكفي " سنة 2004 ص135 :

فكم يلزمنا من العمر لنقوم بكلّ شيء ونقول أوفينا واستوفينا ؟

في هذه المجموعة الشّعريّة يعود الشّاعر كعادته إلى ذكريّات الطّفولة حيث أخذه الحنين إلى مسقط رأسه وأترابه وأهله فصاغ لنا أجمل ذ كريّاته بأسلوب شعريّ بسيط لكنّه مكثّف فيه صور وأبعاد كثيرة فهو لم يترك حبّة إلا ادّخرها وصاغها في لوحات بديعة مستعملا كلّ الأجناس الأدبيّة في نسج قصائده ...

في قصيد "نسيج الألوان "ص 137- 138 والذي يهديه إلى صديقه الرّسام محمود قفصيّة وهو يتلاعب بالألوان والفرشاة بكلّ حرفيّة يقول :

....

فتناول الرّيشة

ورسم

سمّ اللّوحة موّالا

مثل التي لم تأت... قلت

أسمّي اللّوحة ليلى

تلك التي ما أخلفت وعدا... قال

ثم وقّع عند زاوية اللّوح

محمود قفصية -

وفي نصّ أبو سعديّة ص 139-142 والتي هي عبارة عن خرافة قام الشاّعر بقصّها علينا بأسلوب شعريّ طريف ومأسويّ في ذات الوقت :

....

ألف صبيّة

سمراء أو شقراء

تخطفها أياد وحشيّه

تعصرها

تعصرها

ثم ترميها في الشّوارع الخلفيّه

ألا يقصد الشّاعر في هذا القصيد الإرهاب وأعماله الدّنيئة في مجتمعاتنا العربيّة وما يقترفون من أعمال وحشيّة في الإناث و إن كان وقتئذ للإرهاب تسميات أخرى كالخطف والسّبي والأسر والجرائم والرّهائن .....؟

وها نحن اليوم نشاهد ألوانا شتّى من الجرائم والإرهاب في وطننا وفي كلّ أوطان العرب وحتّى العالم فمتى يفكّ عنّا هذا الألم ويزول هذا السّواد ؟

متى تنتعش القلوب التي تحتضر؟

متى تستفيق العقول ؟ متى ينهض البشر ؟ والجميع قد فقدوا الأمل ....

 يعود الشّاعر إلى الحبّ والشّبق في نصّ "البرتقالة والسّكين" ص 142 ليعبّر فيه عن رغبة جامحة ... وهو الذي يراوح بين الحنين إلى الماضي ورصد بعض اللّقطات الرّاسخة في الذّاكرة والأمل والألم فيقول :

لا حاجة لي بالسّكين

كفى ما فعلت بي عيناك

شكرا سيّدتي

قشّريني

وفي نصّ "التّاج " ص 143يقول :

وكي لا ينزل أبدا

شدّ عرشه على الجماجم

ألا يلمّح الشّاعر إلى الحكّام والزّعماء العرب في أوطاننا الذين يتمسّكون بالكراسي والعرش وإن كلّفهم ذلك قتل بشريّة بأكملها ...

فإن كان الحاكم العربي يجعل الرؤوس جماجم ليظلّ في الحكم... الشّاعر جعل قفص الحياة الزوجيّة من ذهب ليحافظ على العشرة والعلاقة ويستمرّ الحبّ ولا يموت فقال في نصّ "القفص الذّهبيّ" ص147:
أوّل الزّواج

كان المهر عصفورا

مخافة أن يطير

العروس وضعته في قفص

من خشب

لكي لا يصدأ

الرّجل جعله

من ذهب

هكذا هي الحياة بين الزّوجين شراكة وتقاسم في المسؤوليّات لكي لا تفتر العلاقة وتضعف ولكي تتوفر السّعادة بالمقدار المطلوب بالتّفاهم والانسجام والتّعاون بعيدا عن كل الحسابات....

لكن يحصل أن يشعر الإنسان من حين لآخر بالضّجر والسّأم والغضب وقد يحتدّ ويشتدّ إلى درجة شبّه الشّاعر فيها الغضب بالنّار الموقدة التي تأتي على كلّ شيء فتأكله ...

فيقول في نصّ "النّار" ص 150 :
لا... ليس عندما سقط نيزك

أو شهاب

أو عندما وقعت الصّاعقة

قبس الإنسان النّار

لا

ليس عندما قدح بالصّوان

شبّت الشّرارة في الحطب

إنّما

عندما ثار في صدر الإنسان

بركان الغضب

لكنّ العاصفة تهدأ بمجرّد سماع الإنسان لكلمة طيبة ، جميلة ممّن يحبّهم وخاصّة بعد عودة من سّفر أو فراق فيقول في نصّ "بعد هجر" ص 152:

والذي سرّني قولها

همسة : أنت أو لا أحد

وفي نصّ "جنين" ص 154 - 155 :

....

ليالينا بعد الأحباب ومضات

ترى صحبي سهارى أم هم باتوا؟

...

هي الأيّام تمضي ... مثلما فاتوا

أناس آنسونا ... ما نسيناهم

فما أحلى وإيّاهم سويعات

...

جنين ... ويحنا جمر على جرح

مدى الأعوام تشريد ونكبات

...

كم التّاريخ يشجينا ونجمات

مع الأحباب ...في جنين لقيانا

برغم اللّيل تأتينا الصّباحات

 إنّه الأمل ودون أمل، الحياة لا معنى لها ،لذلك مهما عشّش الحزن في أوكارنا و طغا الظّلم في ديارنا ومهما ساد الظّلام وعتمت الدّنيا لابدّ للنّور أن يسطع ولا بدّ من صبح جديد والحقّ يعلو ولا يعلا عليه يكفي أن يتحلّى المرء بالصّدق والطّهر ...يكفي أن يخلص لغيره ويحبّ له ما يحبّ لنفسه كما جاء في حديث الرّسول ويكون صادقا وفيّا على الدّوام... ستكون حياتنا ودنيانا بخير وسلام وعلينا سلام...

 يواصل الشّاعر سوف عبيد التّحليق مع آماله وأحلامه وإيمانه أنّ الإبداع لا حدّ له وأنّ العطر الفوّاح يظلّ فوّاحا مهما تغيرّ شكل الزّجاجة ...

فقد حلّق مع الطّيور والعصافير ، مع الماضي والحاضر، مع الأقرباء والأصدقاء ، مع الطّفولة والكهولة ، مع الأيّام واللّيالي ، مع النّجوم و القمر ، الأشجار و الأزهار ولم ينس تلك الحيوانات الصّغيرة جدّا التي تعلّم منها الصّبر والعزم والإصرار والتّحدي فمهما كانت بطيئة أو ضئيلة فإنّ لها شأن عظيم بين الآخرين ...فليتسابق المتسابقون... وليتنافس المتنافسون ... سيفسح لهم الطّريق، شاسعا ممتدّا ويقول لهم تفضّلوا جميعكم ... سلحفاة أو حلزونا بل يذهب به الأمر في بعض الأحيان إلى مرافقتها في السّير، والعبور كما فعل مع النّملة في نصّ "من كتاب الحيوان" ص 156 حين قال :

ثم سرنا معا

...

الذي يمضي بعيدا ...قالت

يمضي رويدا ...

 المجموعة الثّامنة "الجازية " ص159:

 يعتبر هذا الانجاز "الجازية " إنجازا عظيما وعملا ممتازا ... لما تضمّنه من مراحل وتناول فيه مواضيع شتّى ( الرّحلة ،الغزل ،المخاوف ،المغامرة... ) فيمكن اعتبارها معلّقة أو ملحمة أو كما يسمّيها آخرون عكاظيّة ... الجازية قصّة طريفة مقتبسة من التّاريخ بين أسطورة وواقع وجاء هذا المجهود إثر رحلة في البحث والتّنقيب في التّاريخ والتّراث كلّفته سنوات عديدة لإعدادها ... سنوات من التّأمل و السّؤال ثمّ الكتابة و الحذف و التّنقيح ... أثمرت بمولود فريد من نوعه ،هو عمل متكامل ... الأفكار فيه متجانسة مترابطة ...

 بأسلوب يربط بين الجدّ والهزل بين الحزم واللّين ، متنقّلا ، محلّقا في كلّ أنماط و أجناس الكتابة، كتب القصيد العمودي والقصيد الموزون و النثر والزّجل بللّهجة الفصحى وبالعاميّة فلاحت جازيته بشعرها الغزير الطّويل على غاية من الفتنة والرّونق والجمال ، بحكمها وعبرها المفيدة وباستفساراتها وتوجيهاتها العديدة ...

ألا يعتبر هذا تميّزا، أن يجمع الشّاعر بين كلّ تلك المكوّنات والأساليب في كتابة واحدة وعمل واحد يقدّمه للقارئ ورد في 12 صفحة واصفا مراحل الرّحلة ومغامراتها وما احتوت عليه من مصاعب ومشاكل ومخاطر...

يقول الشّاعر في أوّل معلّقته ص 159 :

فحلّقْ بنيّ

كطير الفلاة

وسرْ في الحياة

بلادا ... بلادا

هو الكون ملء جناحيك

نورا تجلّى

لمن في هواه تمادى

وإيّاك من شعرها الجازية

فأنت جموح

تحبّ العناد

ومن وقتها خبّلتني بحسن

فمنْ يعشق الحسن

ينس الرّشاد

لسوف يُسرج إليها الجواد

إنّ الشّاعر الذي يؤمن بالتّحليق والتّحرّر من كلّ القيود والشّروط ويرى أنّ الشّعر إمّا أن يكون انعتاقا وإبداعا ونحتا للّغة بكل الموّاد ،و بكلّ الوسائل و الأشكال والألوان أو لا يكون شريطة أن تبقى اللّغة سليمة جميلة طريفة ... وهو القائل في هذا الموضوع :

"الشعر عندي أوسع من العروض والبحور وأشمل من البلاغة والبيان وحتى اللّغة قد تضيق به أحيانا ..." من كتاب حركات الشّعر الجديد بتونس سنة 2008 - ص124- سوف عبيد

وقد صرّح الشّاعر أنّه حين يكتب القصائد العموديّة إنّما يفعل ذلك بسبب حنينه إلى الماضي واشتياقه إلى التّراث والعتيق وكلّ ما هو أصيل وطريف ويقول في نفس المرجع أعلاه:

" الشّعر عندي لا يحدّ بأشكال ولا يعدّ بأنواع..."ص 124

"ألا إنّما الشّعر حال وسؤال وبحث لا يهدأ ولا يستقرّ على هيئة ولا يثبت على شكل ولا ينتهي عند حدّ لذلك ربّما سمّيت أوزان الشّعر بحورا وذلك لمدّها وجزرها ولهدوئها وصخبها ولغموضها ووضوحها ...أليس الشعر أيضا كالنّهر العظيم دائم الجريان والسّيلان وقد يخرج عن مجراه في بعض الأحيان ...؟ من نفس المرجع أعلاه ص 125

هذا التّنوّع في الكتابات هو ما نشهده في ملحمة "الجازية " يقول في صفحة 159 :

هو السّيل، سيل الأماني تهادى

كمثل البحار وفاق الطّواد

ستمضي خطاك على الجمر ، ثمّ ...

كأنّي أراها تلاشت رمادا

...

بعد الكتابة باللغة الفصحى ينتقل إلى الكتابة باللّهجة العاميّة ليعبّر عن قيمة الوطن الذي لا توازيه كنوز الدّنيا فمن فقده فقد هويّته وعرضه و ووجوده فيقول ص 160:

إلّي ضيّع ذهبْ

في سوق الذّهبْ يراه

إلّي ضيّعْ محبّْ

يفوتْ عامْ وينساه

لكنْ إلّي ضيّعْ وطنْ

وينْ ... الوطنْ يلقاه ؟

...

ويقول كذلك من نفس الصفحة :

ومضى في طريق خاليه

من نجع إلى نجع

كلأنّه يجذبه خيط

من شعر الجازية

....

.....

في طريق وعرة طويلة

لاويه

مرّة من عاليه

مرّة في هاويه

يتّبع أيّ أثر يدلّ عليها

يسائل الرّائح والغادي

في البوادي ينادي

جازيه

جازيه ... يا جازيه

يواصل الكتابة بنفس اللهجة فجاء ص 169:

أوّل خبرْ

الأرض ما تشبعْ مطرْ

ثان خبرْ

الأنثى ما تشبعْ ذكرْ

ثالث خبرْ

العين ما تشبعْ من نظرْ

نعم من الممكن أن نكفّ عن كلّ شيء إلاّ عن النّظر ويقول المثل الشّعبي "كلّ شيء حباس إلاّ النّظر يا ناس "

ويظلّ الشّاعر يراوح في كتابته بين الفصيح وغيره فهو و فسحة مع جازيته بين جميع الكتابات الشّعريّة فيقول ص 164 :

أنت الحبيب فيضه نورٌ

قلبي وقد دعاك مولايا

أوصيته قلبي من العشق

يا ويحه من ترك وصايا

أنت الحبيب قُربُه منّي

في الرّوح لآياته آيا

 مشكاته لاحتْ فأبصرتُ

نورا على نور ومرايا

وفي ص 169 يقول آخر ما غنّتْ به الجازية :

يا حادي النّجع عجّلْ وارحل إذا القوم حطّوا

ترحالنا من قديم لا نوقف الخيل ... قطّ

يا مهرة الرّيح هيّا فالقلب دوما ينطّ

إنّ الشّعر عند سوف عبيد لا يقف عند نظم القصائد و والأوزان والبحور بل الشّعر هو ذاك الكلام المحكم والبديع الذي يصول ويجول في جميع أنواع الآداب و الفنون ...

 المجموعة التّاسعة "حارق البحر" 2012 ص 171:

بدأ الشاعر مجموعته الشّعريّة بإصراره على ضرورة تنوّع أشكال وأنماط الكتابة في الشّعر كيف لا وهو المبحر، المتطلّع في جميع أنواع الآداب : من الأدب السّريالي والجاهلي والعربي إلى الأدب الغربي واليوناني والروسي .....وكيف لا يأخذ من هذه الآداب ويستفيد منها ويشكّل لنا منها باقة من الزّهور المختلفة الألوان والأشكال والرّوائح أقصد مجموعة جميلة من القصائد العموديّة والنّثرية والحرّة ويقدّمها هديّة للسّاحة الثّقافية واضعا عليها طابعه المميّز وبصمته الخاصّة .

فيقول في نصّ الفاتحة ص 173:

 إذا كان العطر فوّاحا

 لا يهمّ

 شكل الزّجاجة

في هذه المجموعة كتب الشّاعر قصائده تقريبا أغلبها عموديّة وقد أفادنا سابقا أنّه يلجأ إلى القصيد العمودي بسبب الحنين الذي يعود به إلى الماضي والشّوق يأخذه إلى البحث في القديم والتّراث ويجعله يتأمّل ما مضى من ذكريات ومحطّات هامّة مرّ بها ومازالت الصّور راسخة في ذهنه، تخالج وجدانه ، تمسّ كيانه فجاء البوح وأطلع ما في الشّريحة من ألم وشجن وحسرة وندم و رجاء وأمل و نقد وهزل ، تصريح وتقرير ، اعترافات و شهادات ....

وجاءت قصيدته "الثّمانون وعام " ص 174 يترحّم فيها على الوالد الذي فارقه تاركا في نفسه حرقة فيسترجع محاسن والده في لوحة جميلة مكتظّة بالمعاني:

أبي والثّمانون عام

على صهوة الأيّام

واقف على السّرج...

ما انحنى ... ولا مال

ما يزال

ليته أنّه يردفني وراءه

واصل الشّاعر استرجاع الماضي البعيد والقريب عن أيّام الطّفولة ومسقط الرّأس والأهل والذّكريات فكتب هذه الأحداث العالقة في مخيّلته والّتي لها وطء على قلبه في قصائد عموديّة مثال ذلك : - تطاوين - الصّورة القديمة - الخمسون - القلم الذّهبي – عروس البحر - القصيدة المنوّرة ..

وهذا لم يمنعه أن يكتب بعض الذكريّات نثرا وموزونا و عاميّة مثال ذلك قصيدة " رحمة الوالدين " ص 194- 195 - 196- 197

 عبّر فيها عن حنينه لوالدته واشتياقه الشّديد لها ذاكرا بعض صفاتها متغنّيا بمحاسنها فكتب :

... آه ... يا أمّيمة

توحشت رنّة كلامك

ونغمة سلامك

توحّشت حتّى ملامك

كتقولّي :

لازم تجي حتّى طلّة

خلّيتلك من الفال

شويّة غلّة

وقال أيضا في نفس القصيد :

اللّه يرحمكم

في كل ورقة من الأشجار

في كلّ قطرة من الآبحار

في كلّ ريشة من الأطيار

وعن الأصدقاء الذين ذابوا وانقرضوا وما صانوا العشرة وما حفظوا الودّ قال في نصّ "الوداع " ص 194 :

وداعا .... وزد للوداع وداعا

فحتّى الصّديق جافاك وباعا

فويل الكريم بقوم و ويل

إذا اللّؤم صار لديهم مشاعا

وكذلك في نصّ "بخفّي حنين" ص 193

الرّاحلة أرخيت لها الزّمام

راحت تاهت وراء الكثبان

الزّاد أصابه الرّفيق

وبرمحه

سدّ الطّريق

وختم مجموعته هذه بقصيد عمودي مطوّل عن المدائح والمدينة المنوّرة فقال في مقاطع من " القصيدة المنوّرة " ص197 - 198- 199 :

أيا حادي العيس أبلغ سلامي

وعجّل رحيلا بدون ملام

و ودّع ..فقد لاح لفح الفيافي

....

إلى الشّرق يمّم ولا من مقام

وحدّث ربوع الحجاز حنيني

وسرب الطّيور لتشدو هيامي

....

هناك على بابه المصطفى قف

وصلّ و سلّم كسجع الحمام

وقل : يا نبيّ الهدى قد تناءت

ثنايا على البعد كثر الزّحام

فقرّب ويسّر إليّ السّبيل

فؤادي مشوق وشبّ اضطرامي

....

على اللّه حسبي وإنّي أصلّي

على المصطفى وهو مسك الختام

 المجموعة العاشرة "عاليا ... بعيدا " 2015 سنة ص 201:

 في هذه المجموعة يعود الشّاعر إلى الماضي الذي يحنّ إليه دائما و باستمرار فجاءت مجموعة من القصائد فيها عموديّة مثل (المحفظة - زغاريد الجنازة - الوداع - وائل - شبق الورد ) أو يكتب حرّا لذكر وصف محاسن تذكار أو معمار أو للوقوف على الأطلال .... فجاء في نصّ " زغاريد الجنازة "ص208 الذي يرثي فيه الشّهيد شكري بلعيد:

مشى ثابت الخطو غير مبال بذاك الكمين

أعدّوا رصاصات غدر إلى صدره والجبين

سيحيا وإن قتلوه ومرحى له من دفين

....

ولاحت علامات نصر برغم الأسى والأنين

زغاريد فخر تعالت فشقّت غيوم السّكون

نساء بلادي نساء وألف وحصن حصين

وفي نصّ "الوداع " ص 212 قال معبّرا عن أنوفته وأصالته وصلب معدنه :

فليس الطّمع يغريني ولا.. لم أضرب الدّفّا

ولا الألقاب تغويني بما عندي أنا أكفا

أصيل الطّبع في عصري غريب ضائع المنفى

....

جنوبيّ الجوى قلبي إذا صافى الهوى أوفى

بعيد في المدى ظلّي وأمشي شامخا أنفا

هكذا يتباهى الشّاعر بنفسه وبأخلاقه وطيبته وهو يناجي روح والده ويسترجع بعض المشاهد والصّور في حياته.. وفي نفس المعنى يقول في قصيدة "المحفظة" ص 214- 215 :

على العهد نبقى لكلّ وفيّ فليت الوفاء لدينا يشاع ؟

أمّا في نصّ" وائل" ص 218 فيقول :

....

فيا طائرا في أعالي الجواء تمهّل وحاذر ففيك وليدي

ورفرف بلطف وحثّ الجناح على عجل رغم ريش الحديد

وبعد انتظار أطلّ حفيدي فهشّ وبشّ بوجه سعيد

...

هكذا كان الشّاعر ينتقل في قصائده بين الوجع والحب - الأحزان والأفراح - الآمال والأحلام ليعود بنا وئيدا إلى قصائده النّثريّة فنجده منشرح الصّدر متفائلا مرحا هاشّا ، باشّا... وذلك يبدو من خلال عناوين قصائده في آخر هذه المجموعة مثل "الأحمر والأبيض- حسناء البحيرة - العاشق الأخير - الوردة و الشّكلاطة - مقام الوجد - الشّجرة الدّامعة – شبق الورد - في الحفل - زهرة التّوليب - أبجديّة - الكروان - ....

ونأخذ على سبيل المثال بعض المقاطع منها

نصّ "الأحمر والأبيض" ص226:

خاض غمارها

ما بين رمح وترس

طال النّزال

حتّى سال الأبيض

على الأحمر

نصّ "العاشق الأخير" ص 227 :

إن لم يبق يحبّها أحد

فلا شكّ

أنّ ذلك العاشق

قد مات

نصّ "الوردة و الشّكلاطة" ص 227 - 228:

وظلّ يستنشق الوردة

مرّة تلو مرّة

ويستزيد

حتّى أطلّت من بعيد

المجموعة الحادية عشر" واحدان " 2016 ص 237 :

 ينعتق الشّاعر من جديد ويتحرّر من كوابيس الماضي ونكباته والوطن وخيبته والثّورة ولعنتها والشّعب وحسرته فيكتب عن الحبّ والعشق والنّزوات والحريّة والمزاح والفكاهة وكان يراوح فيها بين قصيد النّثر والتفعيلة والقصيد العمودي مرفرفا في سماء الأدب والشّعر فيجتني من هذه أريجها ويأخذ من تلك ألوانها ومن أخرى سحرها ورونقها فكانت قصائده : واحدان - زهرات المرمر - الشّاي - حمامة - الشّجرة وورقاتها - وليمة النّمل - سمكة البرّ - رواية أخرى للتّفاحة - السّيجارة - سفر بلا وداع - الفرشاة - آخر الأغبياء - المهرة - الفنجان - شهرزاد الثّانية - شهدة - الفستان - الوشاح - الواجهة - شمس النّافذة - عطاء ...

فنراه عاشقا ولهانا حينا مادحا متغزّلا أحيانا أو هازئا ، ساخرا مرّات ومرّات...

يقول في نصّ " حوار "ساخرا :

الدّجاجة من البيضة؟

أم البيضة من الدّجاجة؟

الجواب الصّحيح

لدى الدّيك

وهو يصيح

وفي نصّ "العمارة" ص 265:

مهارس عند رأسي ليلي لدقّ الحجاره

أنعم به سقف بيت عليه جيش وغاره

و في نصّ"محطّة الأشجار "ص 244 :

....

مضى القطار بالسّنوات تلو السّنوات

عندما وصل

فاتته جميع المحطّات

ونجده عاشقا متغزّلا فيأتي نصّ "سفر"ص 242 :

الأرض

أضيق من خطاها

جناحاها

أوسع من سماء

وحده قلبه

رحب بها

وفي نصّ"الشّاي" ص 240 :

....

كأنّه بين يديها

ظلّ يترشّف

شفتيها

وفي نصّ "حمامة"ص 240 :

ليته يقول:- كن –

 فيكون ما يشاء

 يحلّق معها في السّماء

 وتمتدّ أجنحته في المدى

 تلو المدى

 لتظلّ في أحضانه

 دائما

 أبدا

واختتم الشّاعر هذه المجموعة الشّعرية بنصّ "المشكاة" ص 270 يتغنّى فيها بالرّحمان العليّ ورسوله :

فصيح اللّسان سديد البيان

فما مثله شاعر أو خطيب

هو المصطفى فالصّلاة عليه

و مسك السلام وطيب سكيب

تنوّعت المواضيع في هذه المجموعة الشّعريّة ومضامينها ومقاصدها ففيها الوصف والمدح والحبّ والغزل والحسرة والألم والشّوق والحنين والصّغر والكبر والجدّ والهزل معتمدا المجاز والاستعارة والإيحاء كما كان يعتمد الكثافة في الصّور والدّقّة في الوصف كعادته وكما جاء في جميع أعماله ...

 الجزء الثّاني من التّقديم : القطار الذي فات ...

 بصمات وخطوات من سيرة ذاتيّة 2016

نص الإهداء :

 إلى ليلى

 شكرا واعتذارا

 يهدي سوف عبيد عمله هذا إلى زوجته ليلى تكريما واحتراما لها لما يتكبّده الشّاعر أوالكاتب من أتعاب فهو يحتاج إلى طقوس معيّنة للكتابة وأجواء خاصّة وحدّ أدنى من الهدوء يجب أن تتوفّر فإن لا يجد المساعدة من أهل البيت لن يحقّق الأديب المبتغى وإنّ لفي ذلك لتضحية كبيرة من العائلة وربّما حتّى التّنازل أحيانا عن بعض الحقوق من أجل النّجاح و الإبداع ولذلك نراه يطلب العذر منها لعلّه قد قصّر في حقّها بسبب هذه المحنة، محنة الكتابة ...

 هذه المحطّات التي دوّنها سوف عبيد لابدّ أنّها ذات أهميّة بليغة لما تركته من أثر في نفسيّته ولرسوخها في ذهنه فهو كلّما ذكر ماضيه وتلك العقود المنقضية شعر بالحنين الشّديد إليه و تمنّى لو تعود تلك الأيّام و يتحسّر على لمّة العائلة التي اضمحلّت فيقول وهو يسرد هذه الأحداث صفحة 276 :

" ما أجمل ذلك الزّمن رغم شظف العيش حيث عاشت فيه عائلتنا الكبرى حول بئر الكرمة على الوئام والمحبّة في ما بينها وبعزّة وكرامة مع غيرها ... ولكن هيهات ... "

وفي صفحة 277 يقول : "واحسرتاه"

هذه الحسرة تكمن في حاجة الشّاعر إلى الطّيبة والعفويّة التي كانت متواجدة بين النّاس وقتئذ فهو في شوق إلى رؤية الأهل والأحباب والأصدقاء وهم يجتمعون، يتآزرون، يتعاونون، يضحكون،يتحابّون ...

فيسأل أين اختفى ذلك الحبّ الذي كان يغمر العائلات والتّلاحم الذي كان يربط بينهم فالعائلة بالنّسبة له هي كذلك الحبل المتين الذي يشدّ بطرفه الأوّل الكبار وبالطّرف الثّاني يمسك به بقيّة الأفراد بالتّرتيب وكما تقول الآية القرآنيّة : واعتصموا بحبل الله جميعكم ولا تفرّقوا "

الشّاعر يتحسّر على زمن كان مليئا بالعطاء والتّعاطف رغم قسوة الحياة آنذاك ورغم البساطة وانعدام الرّفاهة والتّكنولوجيا والعيشة الحديثة في ذلك الوقت ... فبرغم الظروف الصّعبة التي واقعها استطاع أن يتحدّى جدب الصّحراء و طول المسافات وبعدها عن المدن و أن ينهل من العلوم والآداب والشّعر من أساتذة أكفّاء يعتبرهم منبع للعلم والمعرفة ويقول أنّه كان محظوظا لأنّه تتلمذ على أياديهم كما يعتبرهم آخر الكبار والعظماء فيقول في صفحة 287 :

"لذلك أعتبر أنّه من حسن حظّي أنّني تتلمذت في تعليمي الثّانوي إلى أساتذة جهابذة في اللّغة العربيّة وأدبها إذ أنّ أغلبهم من خرّيجي جامع الزّيتونة المتضلّعين ... وأساتذة فرنسيّون كانوا حريصين ...على تعليمنا بإخلاص و نزاهة بعيدا عن كلّ الشّوائب الاستعماريّة ...

ويقول أيضا :

"فأنا من جيل تلقّى تكوينا ثقافيّا عميقا ومتنوّعا لذلك نشأنا على الاعتزاز بتجذّرنا في وطننا وحضارتنا وعلى الانفتاح على بقيّة الحضارات والأمم ضمن القيم الإنسانيّة الخالدة "

ويقول في صفحة 285 وهو يذكر والده الذي لعب دورا كبيرا في تثقيفه وتعليمه :

"مازلت أذكر حديث أبي بشغف عن ابن عرفة وإخلاصه في طلب العلم والتّدريس كامل حياته مع تواضعه ،لم أكن وقتها أعلم يا أبتاه أنّك توصيني من حيث لا أدر باتّباع سيرته "

وعن نهله أيضا للمعرفة من مصادر قمّة يقول صفحة 327 :

" وقد واظب أبي رحمه الله سنوات عديدة على دروس الشّيخ الزّغواني ...وقد رافقته أحيانا وبذلك أكون قد أدركت آخر شيوخ الزّيتونة الأفذاذ ونهلت من علمه فهو يقرأ الآية ويذكر موضعها وسبب نزولها ويفسّرها على منهج القدامى إضافة أنّه كان يستخلص العبرة لإصلاح أحوال المجتمع في الختام ."

خلاصة القول في هذه النّقطة سوف عبيد تربّى وتعلّم على أيادي طاهرة وصادقة هدفها كان الإنسان والمعرفة والخروج به من الجهل والظّلمات ليس هو كحال اليوم بحيث أصبحت المادّة طاغية على كل الحسابات والمعرفة تباع وتدنّس ... ويقول ص 302 :

 ربّ يوم بكيْت منه فلمّا صرت في غيره بكيْت عليْه

ويقول صفحة 343 :

"كيف نبدع في عصر حضارة نحن نعيش عل هامشها

هل نكتب شهادة انقراضنا ؟ "

إنّ النّقطة الملفتة أكثر للانتباه في هذه البصمات هو اشتياق الشّاعر لطفولته وحنينه لوالدته فهو كلّما ذكرها يقول :" يا أمّيمة " في هذا التّصغير لكلمة "أمّاه " يشعرنا كأنّ هذه العبارة لم تنل حظّها الكافي عند طفولته لذلك هو يشتاق إلى ترديدها ففي ذكرها يشعر بعودة الرّوح إلى الطّفولة والبراءة فيرتمي في حضن " الميمة " يبكي على صدرها، يشكوها همّه ، يبوح لها بما يتعبه وما يخبّئه من تعب في أعماقه ويقبّلها بحرارة فناجاها في قصيدة له بالعاميّة، كما ذكر في صفحة 277 مقالا تحت عنوان " رحماك يا أميمة " وآخر " ليلة السّفر " أنّه تمنّى لو تركته أمّه يضمّها قبل أن تودّعه يوم سفره من الجنوب إلى تونس العاصمة الذي يعتبره قدرا لابدّ منه من أجل المصلحة فجاءت كلماته معبّرة عن الحبّ والاشتياق "رحماك يا أميمة " و " رحماك يا أمّي ... لماذا لم تتركيني أضمّك عند ذلك الفجر؟ ..."

هذا العطش وهذا الحنين للأمّ والأمومة نلاحظه كذلك من خلال تكرار عبارة " رحماك يا أمه "

" رحماك يا أميمة " في قصيدة " رحمة الوالدين "صفحة 194 – 195 إذ يقول :

توحشتك يا أميمة

محلاها في وجهك تبسيمه

آه ... يا أميمة

توحشت رنة كلامك

ونغمة سلامك

توحشت حتى ملامك

...

سامحيني يا أميمة

يا أميمة سامحيني

لاحد بعد رضاك يسليني

....

كما أنّه مازال يذكرقصّة ليلة سفره إلى العاصمة وكان عمره حينئذ أربع سنوات بحيث تمنّى لو قبّل والدته وضمّها بشدّة إلاّ أنّه أخفى حبّه ومشاعره نحوها رغم المرارة التي شعر بها وهي تودّعه إذ قال ص 277 : " لكأنّ فراقك مكتوب على جبيني منذ صغري فنشأت على تجذّر الحنين إليك... حنين ضرب عروقه عميقا في كياني باكرا ... " ويقول أنّه أراد أن يبدو رجلا صلبا كما شاءت والدته أن يبدو حين دفعتْ به عند الفجر كي يركب سيّارة الأجرة وهي تقول له :" اذهب ... لا تبك ... الرّجال لا يبكون .. "

الشاعر لم يبك يومئذ ولم يعبّر غير أنّه يجيبها اليوم قائلا :

بل الرّجال يبكون يا أمّي ...

وما أحرّ بكاءهم ...

يبكون في حرقة وصمت ...

يبكون يا أمّي ولكن في كبرياء ...

رحماك يا أمّي

وكأنّه يعاتبها فيقول : لماذا لم تتركيني أضمّك عند ذلك الفجر ؟

 لكنّه يبرّر ذلك فيقول أنّ والدته حرصتْ على أن يبدو قويّا وليس مدلّلا فأطعمته كبد جمل وقلب ذئب فيقول صفحة 278 :

ليلة سفره

كان في السّادسة

في العشاء

ناولته أمه شواء من كبد جمل

ومن قلب ذئب

كي يكون جلدا صبورا

فطنا ذكيا

لم يبك عند الوداع في ذلك الفجر

لم تجر له دمعة واحدة

....

هكذا صرّح سوف عبيد في مذكّراته عن إحساسه بالمرارة لأنّه أجبر على كبت مشاعره وعاطفته تجاه أمّه وجعلها سجينة في غياهب قلبه ولم يبح بها لأجد طوال حياته إلاّ من خلال هذه الشّهادات ...

إلى جانب مشاعره تجاه الوالدة لم ينس الشّاعر أن يعبّر عن إحساسه بفقده لوالده فيذكره في نفس القصيدة فيقول " الله يرحم بابا " ويكرّر العبارة " الله يرحمكم " أكثر من خمس مرّات وكثيرا ما يمدحه في مقالاته ويذكر المناسبات التي رافق فيها أباه ودوره في تعليمه وحرصه على ذلك وكان ذلك أيضا بتضحية من أمّه التي تقبّلتِ الفراق إذ قال : " ما كان لأبي ليستمرّ على سيرته تلك لولا وقوف أمّي إلى جانبه وتحمّلها أعباء المنزل فرحماك يا أمّي ..." فهو يكابر فيها التّضحية والصّبر ويعود ليثني على والده إذ يذكر أنّه انتشله من براثن الجهل والفقر وحرص كلّ الحرص على العناية به صحيّا وتثقيفيّا فيقول في محطّته صفحة 282 "صلاة العيد " :

"فعلّمني الطّهارة والوضوء وكيفيّة أداء الصّلاة .... "

"مازلت أذكر كيف أجلستني بقربك بعد ركعتيْ تحيّة المسجد ... "

"أشعر كأنّك مازلت إلى جانبي بقربي فتغمرني السّكينة والمسر"ة وينتشر من حولي الأنس والطّمأنينة . رحماك يا أبي ...."

"أنت الذي رأيت فيك الإسلام بصفائه في بساطته وسماحته وأنت الذي رأيت فيك العفاف واللطف والكدح والبذل طول حياتك.... رحماك يا أبي "

هكذا كان الشاعر يذكر والده بفخر وكبر فهو الذي أورثه الحكمة والمعرفة ومحبّة النّاس رغم انقطاعه عن الدراسة في سنّ مبكّرة إلاّ أنّه ظلّ متابعا لطلب العلم على أيادي الأيمّة والشّيوخ والمثقّفين والقراءة...

ورغم هذا التّعطّش للحنان والنّقص في العاطفة يعتزّ الشّاعر بما حقّقه فيروي مسيرته الأدبيّة في فخر واعتزاز ونخوة و يتحدّث عن نفسه عندما كان صغيرا فيقول : "أتذكّر ذلك الفتى اليافع الذي تمنّى ذات يوم أن يكون له كتاب بين الكتب في تلك المكتبة التي طالع فيها جبران ونعيمة و ... والتي قرأ فيها ... وطالع فيها ... "

"مازلت عندما أمرّ أمامها وأرى الكتب منضّدة أعود ذلك الفتى الذي كان يقف طويلا يتصفّحها ويقرأ الكثير من صفحاتها دون أن ينهره صاحبها رحمه الله ... "ص 300 .

"ذلك الصّبيّ ها هو اليوم يوم السبت 4 جانفي 2014 يرتقي درجاتها (الكنيسة ) لتكريمه فيها فيجلس بينهم رجلا ... "

" وأعجب من نفسي وقتذاك كيف تسنّى لذلك الصّبيّ الذي عاش سنواته الأولى في أقاصي الجنوب ... أن يتولّى قيادة مركب شراعيّ...

هكذا الشّاعر كلّما ذكر نفسه طفلا أو شابّا يافعا في قصّة له أو حادثة لا يكتب إلاّ عبارة الفتى أو الصبي أو الشاب ليعبّر عن نضجه قبل الأوان وكونه تخطّى عتبة الرّجولة باكرا فصار طفلا بقلب رجل فهو مبهر وفخور بذاته وبشخصه وكون الحياة لم تؤثر فيه وقتها ولم تجرفه تيّارات أو انحرف بل اختياراته كانت عن قناعة و عقل فقد حدّد مصيره ومستقبله بمفرده و أقبل على ما يفيده وأدبر عن ما يسيء إليه عن وعي وتجربة فهو قد دخل معارك الحياة في العاصمة صغيرا فكان هادئا رصينا صبورا وكان يقتدي بمن أكثره حكمة وأسبقه تجربة وأكبره سنّا أمثال ابن عمّ له وأبيه وأساتذته ومعلّميه ... فهو ما اشتكى وما بكى وأستشهد هنا بواقعة له ذكرها يوم دخل أوّل يوم المدرسة و كيف وقع في الوكوكة حين سأله المعلّم عن اسمه وضحك الأطفال منه اعتبر ذلك أمرا عاديّا من أطفال أبرياء و عرّج على مساعدة المعلّم له في تجاوز هذا المشكل فهو لا يذكر في الأشياء إلاّ إيجابيّاتها وهذا دليل على شخصيّته القويّة و نضجه و أنّ المعرفة لا تبنى من لاشيء ...

جانب آخر لاحظته وأنا أتصفّح هذه الخطوات وأخطو بينها ومعها واحدة بواحدة أنّ الشّاعر لم يتناول في قسم من أقسامه الحديث عن المرأة أو الحبّ والعشق بصفة مباشرة لا في قصائده ولا في مقالاته وبصماته سوى ذلك الحديث عن والدته و باختصار عن جدته وعمته حين تعرّض إلى ذكر الألفة بين الأهل في الجنوب ... هل تعمّد إخفاء ذلك الجانب ؟ هل أنّ المرأة لا تمثّل محور الكون بالنّسبة له ولا العنصر المؤثر والفعّال عنده ؟ هل غيّب حضور المرأة لأنّه حرم من حنان الأمّ وعطفها لمّا كان صغيرا وتربّى على قلب رجل صلب منذ نعومة أظفاره وقد ساهمتْ في أخفاء مشاعره أمّه كي لا يبدو ضعيفا فأراد أن يحافظ على ذلك التّوازن فأخفى كل شعور بالحبّ تجاه الجنس اللّطيف ؟ هل يرى في التّصريح عن مشاعره بالحبّ تجاه المرأة ضعفا منه وأمرا مخجلا وهو الذي تربّى على القيم الثابتة وعلى الاحترام أم يعبر تلك مسألة شخصيّة تهمّه وحده؟ ولكنّه عبّر عن اشتياقه لوالدته وحنينه إليها وتمنّيه لو عانقها وقبّلها ؟ هل وهل .. ؟

في الأثناء تحدّث الشاعر عن الهوى مرّتين الهوى الأوّل والهوى الثّاني في الوهلة الأولى ظننت أنّ الكاتب سيحدّثنا عن مغامرة عاطفيّة وعن حبّ له مع امرأة إلاّ أنّي أكتشف بعد القراءة أنّ الهوى الأوّل كان للمطالعة لمّا كان صبيّا يافعا والهوى الثّاني كان للمقهى الذي كان يجلس فيه للقراءة ولمقابلة الأدباء ولسماع أغاني أمّ كلثوم وهو يشرب قهوة الشّكلاطة هنالك ..

رغم كلّ ذلك المؤلف يكنّ للمرأة كلّ الاحترام والتّقدير ويرى فيها القداسة فيبجّلها في اللّقاءات الشّعريّة ويعطيها الأولويّة في الجلوس وفي تناول الكلمة فالجانب الإنسانيّ حاضر فيه وبقوّة فنراه يعامل الجميع بأدب ولطافة وحبّ وطيبة فهو مليء بالتواضع، مساعد ، نصوح، مشجّع لكل من يقصده فشعاره عطاء بلا حدود ومعرفة للجميع من أجل الرقي بالثقافة والعلم والقضاء على الجهل والوقوع في ما يحسد عقباه فهو الذي تربى على الحبّ والتضامن يريد أن يستمرّ ذلك بين أفراد المجتمع دائما وأبدا ...

 في الأخير وليس بالأخير الأستاذ سوف عبيد نهل من شتّى أنواع الأدب وفنونه الكثير ومع ذلك بقي رمزا للتّواضع فما رأيناه تظاهر ولا تفاخر على العكس ذلك كان يقول باستمرار : " ما أكثر ما أخذت وما أقلّ ما أعطيت "

و لأنّه أنموذج ومثال يقتدى به أٌذكر نصّا لي في مجموعتي الشعرية "امرأة استثنائية "يعبّر عن أمثاله أقدّمه هديّة له فهو فعلا ينطبق عليه :

الرائعون يطرقون القلوب

يدخلون بهدوء

الرائعون يغضبون

يعتبون

لا ينزعجون

ولا يجرحون المشاعر

الرائعون هم التيجان على الرؤوس

الرائعون يرحلون

لا تسمع وقع أحذيتهم

بسرعة يرحلون

لكن لا تراهم العيون

 الخاتمة :

 في الختام ، إنّ هذا الدّيوان و الذي حظيت بقراءته مرّات ومرّات وعلى فترات متتالية، متباعدة، متقاربة ، أشعر أنّي لم أعطه حقّه ولا حظّه الكافي من التّقديم فهناك عدّة جوانب لم أتطرّق إليها ربّما لأنّي لم أختصر على مجموعة واحدة منه بل تناولت كلّ أعماله فكانت قراءتي شامله و النصوص كثيرة و غزيرة ... وربّما لأنّي خشيت أن أطيل في هذا التقديم أكثر مما أطلت وربّما لأنّي في كلّ مرّة أقرؤه أكتشف جديدا وقراءة مغايرة للتي سبقتها ....

وما تقديمي هذا إلاّ قطرة من بحر ولذلك أود أن ألفت الانتباه إلى أنّ هذا الإنجاز يحتاج إلى أكثر فحص وتفحّص، أكثر دقّة وتدقيق ، أكثر تمعّن وإمعان من قبل أخصّائيّين في النّقد والدّراسات الأدبيّة وباحثين في اللّغة وفي أجناس الشّعرعلى أن يولوا الدّيوان جهودهم واهتماماتهم وتقع مداولته ودراسته بجدّيّة بالبحث في مضامينه وأساليبه وفي أبعاده الفكريّة والأدبيّة والتّثقيفيّة والتّعليميّة ...

فأنا أعتبر أنّ هذا العمل الأدبي عظيم بعد ديوان أبي القاسم الشابي من "أغاني الحياة "

وهو فخر لتونس فالشاعر سوف عبيد أضاف للسّاحة الثقافية الجديد بخروجه من قوقعة التّقليد وإطلاق العنان للشّعر للتّحليق به بعيدا بعيدا ...

 أما عن قصائده فهي نابعة من القلب والروح والوجدان تناول فيها الحياة اليوميّة الملموسة والمحسوسة والمشاكل التي يعيشها إنسان العصر و اليوم في تونس و خارج تونس فهذه الخلجات لا تخصّ فردا معيّنا ولا تعني الشاّعر بصفة خاصّة إنّما كلّ قارئ للدّيوان يخال أنّه يقرأ نصوصا كتبت عنه وله ...

تمنّياتي بمزيد التّألّق والإبداع للشّاعر وبمسيرة أدبيّة زاخرة .

الأستاذة : سونيا عبد اللّطيف